استراتيجية السعودية تاريخيا: إبقاء اليمن ضعيفا ومدمرا

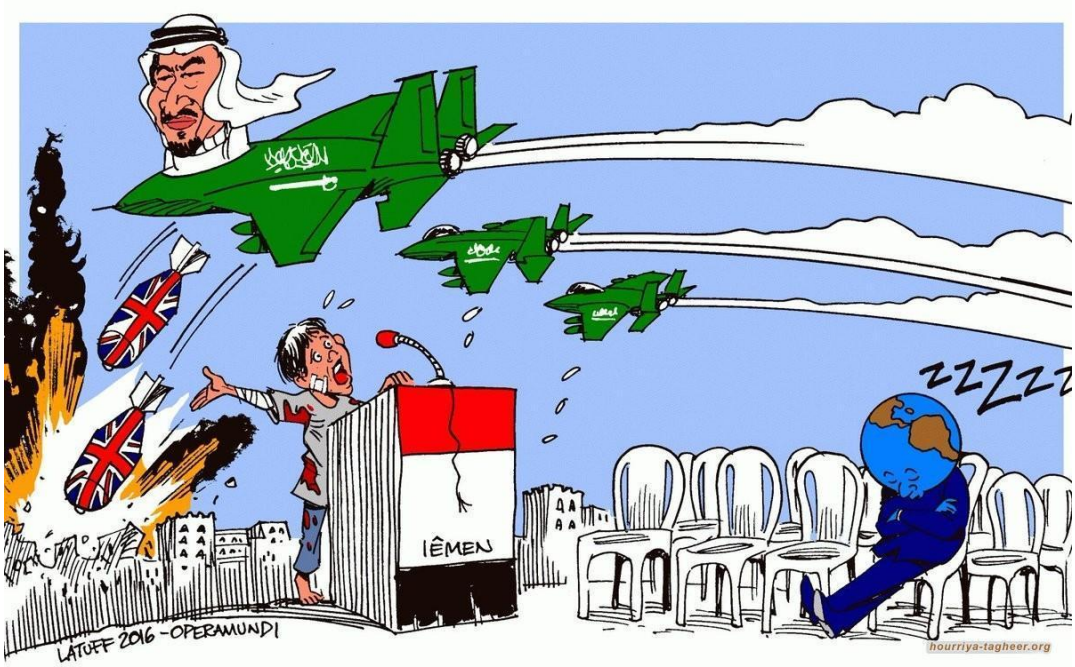

يُقال إن الملك عبد العزيز آل سعود، مؤسس السعودية الحديثة، قال لأبنائه على فراش موته: "ابقوا اليمن ضعيفًا". وسواءً كانت هذه الكلمات ملفقة أم لا، فإن المشاعر الكامنة وراءها تتوافق مع الاستراتيجية الجيوسياسية السعودية الراسخة تجاه جارتها الجنوبية.

تاريخيًا، سعت السياسة السعودية إلى الحفاظ على توازن القوى في اليمن – قويًا بما يكفي لمنع الانهيار التام وعدم الاستقرار الإقليمي، ولكنه ضعيف بما يكفي لمنعه من أن يصبح دولة قوية ومستقلة قادرة على تحدي النفوذ السعودي.

وقد تجلى هذا النهج في التدخلات السعودية السابقة في اليمن، مثل دعمها في ستينيات القرن الماضي للملكيين اليمنيين ضد الجمهوريين المدعومين من مصر بقيادة جمال عبد الناصر.

ومع ذلك، قبل عشر سنوات بالضبط، بعد منتصف ليل 26 مارس/آذار 2015 بقليل، خالفت المملكة العربية السعودية نهجها التقليدي تجاه اليمن عندما شنّت غارات جوية مكثفة على العاصمة صنعاء.

كان هدف السعودية، بقيادة تحالف عسكري ضمّ دوًلا خليجية أخرى، هو طرد الحوثيين من صنعاء بعد أن أطاحوا فعليًا بالحكومة اليمنية آنذاك برئاسة عبد ربه منصور هادي. لم يكن التدخل العسكري بقيادة السعودية، بما في ذلك حملة القصف الجوي التي أودت وحدها بحياة نحو 24 ألف يمني، "محدودًا" كما وعد السعوديون، ولم "يحمِ الشعب اليمني".

بدلاً من ذلك، أدى التدخل السعودي الكارثي إلى مزيد من تجزئة اليمن. ولا تزال السيطرة على البلاد اليوم منقسمة بين الحوثيين، الذين أصبحوا أقوى بكثير مما كانوا عليه عام ٢٠١٥، وأصبحوا القوة المهيمنة في شمال اليمن؛ والحكومة الضعيفة المعترف بها دوليًا، والمتمركزة في عدن في معظمها؛ والمجلس الانتقالي الجنوبي الانفصالي المدعوم من الإمارات العربية المتحدة، شريكة السعودية السابقة في تحالفها العسكري ضد الحوثيين.

وبعد عشر سنوات من بدء الغارات الجوية، خلّفت الحرب التي تقودها السعودية ضد الحوثيين اليمن في حالة خراب، دون فائز واضح، بل دمار شامل. وقد ساهم كل فصيل مشارك، من الحوثيين إلى التحالف الذي تقوده السعودية وحلفائهم المحليين إلى الداعمين الغربيين للتحالف، في المعاناة.

وعندما استولى الحوثيون على صنعاء عام 2014 ، مهدوا الطريق لحرب طويلة لم تُحسم بعد، والتي هددت بجذب قوى خارجية. وفي حقبة أخرى، ربما كانت المملكة العربية السعودية لتكون أكثر حذرًا، ولكن مع تولي ولي العهد الأمير محمد بن سلمان المزيد من السلطة في عهد والده الملك سلمان، دفع الأمير نحو ما اعتبره المراقبون على نطاق واسع "حربه" – ما أصبح سريعًا "فيتنام المملكة العربية السعودية".

وقد وُجّهت اتهاماتٌ موثوقةٌ إلى جميع أطراف حرب اليمن بارتكاب انتهاكاتٍ جسيمةٍ لحقوق الإنسان وجرائم حرب، مما ساهم في تدهور البلاد إلى جحيم. وقد أكّد استخدامُ التجويع كسلاحٍ في الحرب – من قِبَل كلٍّ من الحوثيين والتحالف الذي تقوده السعودية – وحشيةَ هذا الصراع.

وارتُكبت في اليمن كلُّ أهوال الحرب التي يُمكنك تسميتها. وقد قدّرت الأمم المتحدة في عام ٢٠٢٠ أن ما يقرب من ربع مليون شخص لقوا حتفهم، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، نتيجةً للنزاع، مع أن معظمهم يعتقدون أن عدد القتلى أعلى بكثير. وقد فشلت جميع الأطراف المتحاربة في الالتزام حتى بأبسط مبادئ القانون الإنساني الدولي.

كان للتدخل السعودي في اليمن هدف رئيسي واحد: دحر سيطرة الحوثيين على صنعاء. وقد فشل فشلاً ذريعاً

في تحقيق هذه المهمة. بل على العكس، رسّخت المغامرة العسكرية السعودية الانقسامات اليمنية، وفاقمت المعاناة الإنسانية في جميع أنحاء البلاد، وتركت اليمن دولةً ممزقة.

تمتد عواقب هذا الفشل إلى ما هو أبعد من ساحة المعركة، مُشكّلةً مستقبل اليمن السياسي وديناميكياته الإقليمية بطرق يصعب عكس مسارها. إن فشل السعودية ليس عسكرياً أو سياسياً فحسب؛ بل هو فشلٌ في المنطق والعقل.

في الأيام الأولى للحرب عام ٢٠١٥، زعم دبلوماسيون سعوديون لمسؤولين أمريكيين أنهم قادرون على هزيمة الحوثيين في غضون ستة أسابيع ، وهو تنبؤ لم ينذر بكارثة عسكرية فحسب، بل بسوء تقدير سياسي أيضًا.

فبدًلا من تعزيز الحكومة اليمنية كما زعم تدخلها، قوضت الإمارات العربية المتحدة، الشريك الرئيسي للسعودية في التحالف، الأهداف السعودية المعلنة بدعمها ميليشيات يمنية منافسة مثل المجلس الانتقالي الجنوبي، الذي يسعى إلى الانفصال وإعادة تأسيس دولة جنوب اليمن المستقلة.

وقد أدى هذا الافتقار إلى استراتيجية موحدة إلى تحويل الكتلة المناهضة للحوثيين إلى مراكز قوى متنافسة، مما أضعف التحالف وأطال أمد الحرب، محوًلا اليمن إلى ساحة معركة للتحالفات المجزأة وحرب متزايدة الانقسام، متعددة الجبهات والأطراف.

تعثرت جهود السعودية لتوحيد المعسكر المناهض للحوثيين – من خلال اتفاق الرياض عام ٢٠١٩ ومجلس القيادة الرئاسية الذي هندسه السعوديون عام ٢٠٢٢ – بسبب هذه التنافسات الداخلية العميقة والأجندات المتضاربة، لا سيما بين الفصائل اليمنية المدعومة من السعودية والقوات المدعومة من الإمارات مثل المجلس الانتقالي الجنوبي.

وبدلاً من تشكيل جبهة متماسكة، عمّقت المكائد السعودية الانقسامات القائمة، مع استمرار الصراعات الداخلية داخل مجلس القيادة الرئاسية في الرياض. وقد حوّل تنافس المصالح السعودية والإماراتية، وغياب أي قيادة مركزية، مجلس القيادة الرئاسية إلى ساحة معركة أخرى لصراعات السلطة داخل الكتلة المناهضة للحوثيين.

لكن الأهم من ذلك، على أرض الواقع في اليمن، أن الفشل العسكري للتحالف بقيادة السعودية كان متجذرًا في سوء تقدير استراتيجي وضعف هيكلي.

فالافتراض الأولي بأن القوة الجوية والتفوق العسكري سيُهزمان الحوثيين بسرعة قلل من شأن مرونتهم وقدرتهم على التكيف في ظل الحرب غير المتكافئة، بما في ذلك ضربات الطائرات المسيرة وغيرها من أساليب حرب العصابات التي طوروها على مدار سنوات من التمرد في المرتفعات الشمالية لليمن.

وقد استغل الحوثيون كل زلة سعودية، ووسّعوا نطاق نفوذهم في اليمن، ثم شنّوا هجمات متواصلة في عمق الأراضي السعودية.

كشف فشل التحالف الذي تقوده السعودية في تحقيق أهدافه، رغم النفقات العسكرية الضخمة، عن نقاط ضعف عميقة في القدرات العسكرية للمملكة العربية السعودية، مما أدى إلى استنزاف مواردها وإثارة تساؤلات حول استقرارها الاقتصادي على المدى الطويل.

وقد تركت الحرب المطولة السعودية في موقف ضعيف، وهو ما يفسر تحول الرياض المفاجئ إلى الدبلوماسية خلال العامين الماضيين، فيما يُعادل تراجعًا كبيرًا.

وقد أدى تشرذم اليمن، في حالة من التقسيم الفعلي، إلى جعل أي حل سياسي متماسك صعب المنال بشكل متزايد، مما عزز عدم استقرار اليمن وأبرز المخاطر التي خلقتها المملكة العربية السعودية من خلال تدخلها العسكري.

وبدلاً من محاولة إعادة تشكيل المشهد السياسي في اليمن، يُركز السعوديون الآن على قضايا أصغر، مثل أمن الحدود. بدءًا من اتفاقها عام ٢٠٢٣ لإعادة العلاقات الدبلوماسية مع إيران، بوساطة صينية، ووصولًا إلى الزيارة المفاجئة للسفير السعودي إلى صنعاء في أبريل ٢٠٢٣، حيث التقى بقادة الحوثيين، انتقلت الرياض إلى وضع احتواء الأضرار.

واضطر المسؤولون السعوديون إلى تعديل نهجهم، من الخطاب العدواني حول طرد الحوثيين من السلطة إلى أهداف أكثر تواضعًا لاحتواء التهديدات للمملكة. ويعكس هذا التحول إدراكًا بأن التدخل العسكري وحده لا يكفي لحل الأزمة في اليمن.

تُسلّط هجمات الحوثيين في البحر الأحمر، التي استهدفت الملاحة الدولية والسفن البحرية الأمريكية والأهداف الإسرائيلية، تضامنًا مع غزة، الضوء على أخطاء الحرب السعودية، التي انتهت إلى رفع الحوثيين إلى مستوى لاعب إقليمي.

وبعد أن كانوا في السابق مجرد تمرد قبلي يستهدف شمال اليمن، أصبح الحوثيون الآن يتمتعون بنفوذ عالمي. إن حقيقة أن كلاً من إدارة بايدن وإدارة ترامب أمرتا بشن غارات جوية أمريكية ضدهم لا تؤدي إلا إلى تعزيز روايات الحوثيين بأنهم يقودون المقاومة المسلحة لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل.

لكن بقاء الحوثيين لا يزال يعتمد في النهاية على التفاوض، وليس على الحرب التي لا نهاية لها. على الرغم من التدخل السعودي الفاشل، لم ينتصر الحوثيون في الحرب في اليمن، حتى لو خرجوا منها أقوى.

بالنسبة لليمنيين، كان العقد الماضي بمثابة سلسلة من السنوات الضائعة، والآمال المحطمة، والمعاناة التي لا تُوصف. لم يعرف الجيل الأصغر سوى أهوال هذا الصراع الوحشي.